بسم الله الرحمن الرحيم
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ

الصادقين

الإسلام محتاج الى جميع أبنائه

الخميس ١٨ شعبان ١٤٤٥ هـ / ٢٩ شباط ٢٠٢٤م العدد ٢٤٣

نشرة تصدر عن المكتب الاعلامي متخصصة بنقل أحاديث وخطابات وفتاوي وأخبار سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله)

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] السيدة الزهراء (عليها السلام) أجلى مصاديق الكوثر المعطى لرسول الله (صلى الله عليه وآله)

﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢]

سورة الفجر والإمام الحسين (عليه السلام)(١)

روى الشيخ الطبرسي في فضل سورة الفجر عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنه قال: (ومن قرأها في ليالٍ عشر، غفر الله له، ومن قرأها سائر الأيام، كانت له نوراً يوم القيامة)(٢).

الفجر لغةً ((شق الشيء شقاً واسعاً)) كما في المفردات وأضاف إليه في التحقيق: ((انشقاق مع ظهور شيء)) وهو أقرب قال تعالى: ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا﴾ [القمر: ١٢] أي شققنا الأرض عن عيون ماء وقوله تعالى: ﴿فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]، ولذا سُمّي الوقت الذي يسبق طلوع الشمس بالفجر لأن ضياءها الأول المعروف عند العرب بعمود الصبح يشق ظلمة الليل ويتسع النور حتى يملأ السماء، وإن كان التوصيف بالعمود يشير إلى الفجر الكاذب الذي لا يكون معتبراً شرعاً فإنه يبرز كالعمود ويشبهونه بذنب السرحان أي الذئب، وإنما الفجر الصادق الذي يليه هو المعتبر وهو ضوءٌ مستعرض يزحف نحو السماء كالغطاء، وأُطلِق الفجور على فعل القبائح كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٤] وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين: ٧] وذلك لأن فاعلها يشق ستر العفاف والحياء والدين والحكمة والاعتدال ويخرج بما يخالف ذلك كله.

وقال في مجمع البحرين: أن ((أصله المفارقة، ومنه تفجير الأنهار وهو مفارقة أحد الجانبين الآخر)) ولعله من لوازم ما ذكرناه.

فتبدأ السورة بالقسم بالفجر، والقسم يشد الانتباه ويستحضر القلب ويفرّغ الذهن لما يقسم به، وقد ورد القسم بأوقات أخرى في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤]، ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: ١]، ﴿وَالنَّهَارِ﴾ [الشمس: ٣]، ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: ١]، ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾ [التكوير: ١٧] لخصوصيات في هذه الأزمنة تقتضي تعظيمها وتشريفها تُذكَر في مواضعها أو لنكتة عامة وهي التأكيد على عظمة الوقت وضرورة استثماره في ما ينفع، وقد تكرر القسم بالفجر ومرادفه وهو الصبح كما في قوله تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨] وكأن الليل كان جاثماً على صدره حتى إذا أرسلت الشمس أول ضوء لها عند الفجر تنفس الصبح، وقوله تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: ٣٤] فمع أول ضياء للشمس يسفر الصبح عن كيانه الجميل بعد أن كان محجوباً بالليل.

وتكرار القسم بالفجر والصبح لعظمة الفجر في كونه بداية يوم جديد ينهض فيه الإنسان نشيطاً بعد أن استراح بالنوم ليضيف إلى رصيده أعمالاً توجب السعادة والفلاح، وإن فترة ما بين الطلوعين لها تأثير كبير في جلب البركة والرحمة والتوفيق لذا أكّد الشارع المقدس على ذكر الله تعالى وأوجب صلاة الصبح فيها قال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ [ق: ٣٩] [طه: ١٣٠] وقال تعالى ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠] وقال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ﴾ [هود: ١١٤] كما تكرر القسم بالليل أيضاً ولعله لأثر القيام فيه في تحصيل الكمالات الروحية قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وروى الشيخ الطوسي بسنده عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال: (إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] يعني صلاة الفجر تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار، فإذا صلّى العبد صلاة الصبح مع طلوع الفجر أثبتت له مرتين، تثبته ملائكة الليل وملائكة النهار)(٣).

والظاهر أن المراد بالفجر الظاهرة التكوينية المعروفة الممتدة من ظهور الفجر الصادق الذي تجب فيه الصلاة والإمساك للصائمين وهو ابتداء اليوم عند جمع من العلماء إلى شروق الشمس وهي من آيات الله تعالى التي تجري بدقة متناهية لكننا لا نلتفت إليها

التتمة في الصفحة الثالثة

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٩]

الفتح الأعظم يوم الظهور الميمون(١٣)

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ * فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٢٨-٣٠].

الفتح: إزالة الإغلاق والأقفال والأغلال والأسداد ونحو ذلك، وهو قد يكون في الأمور المادية كقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ﴾ [القمر: ١١] وقوله تعالى ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦] ومنه فتح الباب بفك إغلاقه، وقد يكون في الأمور المعنوية كانفتاح الذهن على فكرة تحلّ مشكلة علمية أو معرفة معاني لم يكن يعلمها قبل ذلك، ويقال لمن يهتدي إلى حكم في قضية معينة أنه فتح عليه لأن فيه إزالة اللبس والغموض قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وإنما يبدأ الفتح الحقيقي من انفتاح القلب على الإيمان بالله تعالى وانشراحه به وطهارة النفس وانطلاق الأعضاء في طاعة الله تعالى والتحرّر من قيود الرذيلة والانحطاط وإتباع الأهواء والبعد عن الله تعالى، وما الغرض من بعثة النبي (صلى الله عليه وآله) إلا تحقيق هذا الفتح للناس من الأولين والآخرين وتخليصهم من أغلال الجاهلية النفسية والاجتماعية والفكرية والعقائدية والأخلاقية وفي سائر شؤون الحياة، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ومن دون حصول هذا الفتح لا ينتفع الإنسان حتى بالفتح الأكبر بظهور الإمام المهدي (عليه السلام)، روى الشيخ الكليني في الكافي بسند رفع عن أبي بصير قال: (قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): جعلت فداك متى الفرج؟ فقال: يا أبا بصير وانت ممن يريد الدنيا؟ من عرف هذا الأمر فقد فُرّج عنه لانتظاره)(١٤).

وهكذا تتعدد معاني الفتح، ومنها الحكم الفصل بالحق مع الخصوم، وقد دعا نبي الله نوح عليه السلام ربه أن يفتح أي يفصل بينه وبين قومه ويضع حداً لعنادهم فقضى الله عليهم بالغرق ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٧-١٢٠].

كما وصف الله تعالى صلح الحديبية بالفتح المبين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] حيث كان سبباً لكسر الحصار الذي فرضه المشركون على النبي (صلى الله عليه وآله) ودعوته المباركة، ولانتشار الإسلام واختراقه لقريش أنفسهم وانهيار جبروتهم ووصول الدعوة النبوية المباركة إلى أنحاء الجزيرة العربية التي كانت مغلقة تبعاً لموقف قريش الشرس ضد النبي (صلى الله عليه وآله)، وقد حصل كل هذا بلا قتال، فالفتح لا يختص بالنصر العسكري وقد تقع من الفتوح دون نصر حربي عسكري، بل هذا النصر من مقدمات وأسباب الفتح الذي قد يحصل وقد لا يحصل، قال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] وقوله تعالى ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣] بل إن النصر العسكري لا تكون له قيمة إلا بمقدار أدائه لغرضه وهو الفتح المعنوي بإحقاق الحق وإبطال الباطل وإقامة حكم الله تعالى وإرساء العدالة الاجتماعية بين الناس، وفي ضوء هذا يجب تقييم ما تسمى بالفتوحات الإسلامية التي حصلت بعد وفاة النبي (صلى الله عليه وآله) وسائر الحروب عبر التاريخ.

ولتحقيق هذا الفتح أدوات تكون مفاتيح إغلاقه لا بد من معرفتها، فإن لكل فتح ما يناسبه من المفاتيح، فمفتاح الجنة التقوى والعمل الصالح وخلوص النية والقلب السليم وطهارة النفس، قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠] وقال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا

التتمة في الصفحة الرابعة

(١) قبس من نور القرآن ألقاه سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) يوم الأربعاء ٣/شعبان/١٤٤٥ الموافق ١٤ /٢ /٢٠٢٤ حيث صادف ذكرى ميلاد الإمام الحسين (عليه السلام) وقرب حلول ذكرى استشهاد السيد الصدر الثاني (قدس سره) يوم ١٩ /٢ /١٩٩٩.
(٢) مجمع البيان: ١٠ /١٩٠. (٣) التهذيب: ٢/ ٣٧، ح ١١٦، وسائل الشيعة: ٤/ ٢١٣.
(١٣) قبس من نور القرآن ألقاه سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) في درس التفسير الأسبوعي يوم الأربعاء ١٧/شعبان/١٤٤٥ الموافق ٢٨ /٢ /٢٠٢٤.
(١٤) الكافي: ١ /٣٧١، ح٣.

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]

السيدة الزهراء (عليها السلام) أجلى مصاديق الكوثر المعطى لرسول الله (صلى الله عليه وآله)(٢٤)

روى الشيخ الصدوق في فضل تلاوة سورة الكوثر بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (مَن كانت قراءته: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ في فرائضه ونوافله، سقاه الله من الكوثر يوم القيامة وكان مُحدَّثه عند رسول الله (صلى الله عليه وآله) في أصل طوبى)(٢٥).

سورة الكوثر أقصر سور القرآن، وداخلة في تحدي القرآن لطواغيت قريش وبلغاء العرب بأن يأتوا بمثلها في قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣] وقوله تعالى ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨] ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثلها ومن مظاهر الإعجاز فيها أنها نزلت في مكة وهم في ذروة طغيانهم وتعبئتهم لإبطال دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) الذي كان محاصراً محروماً مستضعفاً وهي تتحدث عن كثرة النبي (صلى الله عليه وآله) وانقطاع أمر أعدائه.

والسورة فيها تسلية للنبي (صلى الله عليه وآله) وتطييب لنفسه من الضيق والألم والحزن الذي كان يسبّبه الخصوم، وتذكير له (صلى الله عليه وآله) ببعض نعم الله تعالى العظيمة عليه، وتكليفه إزاء هذه النعم بالصلاة والنحر، وتكليفنا أيضاً لأننا نحن المستفيدون من هذا الكوثر والمتنعمون به في الدنيا والآخرة.

والسورة مكيّة، روي في سبب نزولها عن ابن عباس قال: (إن رسول الله (صلى الله عليه وآله) دخل من باب الصفا وخرج من باب المروة فاستقبله العاص بن وائل السهمي، فرجع العاص إلى قريش، فقالت له قريش: مَن استقبلك يا أبا عمرو آنفاً؟ قال: ذلك الأبتر، يريد به النبي (صلى الله عليه وآله)، حتى أنزل الله هذه السورة ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ * فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يعني عدوك العاص بن وائل هو الأبتر من الخير، لا أُذكرُ في مكان إلا ذُكرتَ معي يا محمد، فمَن ذكرني ولم يذكرك ليس له في الجنة نصيب)(٢٦) وفي تفسير القمي (وكان الرجل في الجاهلية إذا لم يكن له ولد سمي أبتر، ثم قال عمرو: إني لأشنأ محمداً أي أبغضه، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ أي مبغضك عمرو بن العاص ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ يعني لا دين له ولا نسب)(٢٧).

ونقل في تفسير البرهان أن عمرو بن العاص لما ولي مصر من قبل معاوية بذل مائتي ألف درهم لمحو آية ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ فلم يفلح، (فبلغ ذلك معاوية فكتب إليه: قد بلغني ما قلت على منبر مصر ولست هناك)(٢٨).

ويظهر من بعض الروايات أنها نزلت في المدينة أيضاً مرة أو أكثر، ويمكن أن يكون معنى نزولها التذكير بها أو تطبيقها على بعض مواردها، فقد روي عن ابن عباس قال: (قدم كعب بن الأشرف(٢٩) مكة فقالت له قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم، ألا ترى إلى هذا الصابئي المنبتر من قومه يزعم أنه خير منا ونحن أهل الحجيج وأهل السقاية وأهل السدانة؟ قال: أنتم خير منه، فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ونزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٥١-٥٢])(٣٠).

والكوثر على وزن ((فوعل من الكثرة، وهو الشيء الذي شأنه الكثرة))(٣١) على نحو نوفل وهو كثير النوافل، فهو من صيغ المبالغة، لذا قيل في معناه أنه الخير الكثير كما في معجم مقاييس اللغة وروي عن ابن عباس وسعيد بن جبير، وقيل أنه ((الخير العظيم الذي أعطيه النبي (صلى الله عليه وآله))) ، ويقال: تكوثر الشيء كثر كثرة متناهية، قال الشاعر: (وقد ثار نقع الموت حتى تكوثرا) كما في المفردات، هذا بلحاظ الفعل.

وقد يطلق بلحاظ الفاعل فيقال للرجل المعطاء السخي: (الكوثر) كما في المقاييس والمفردات، وعلى هذا فالنبي (صلى الله عليه وآله) كوثر في نفسه ومعنى إعطائه الكوثر أي جعله كوثراً لأنه أعظم الخلق بركة وخيراً على كل المخلوقات فهو الأولى بقوله تعالى ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]، وكذا أهل بيته المطهرون (صلوات الله عليهم أجمعين) فهم (أولياء النعم) و (مساكن بركة الله ومعادن حكمة الله) (والرحمة الموصولة) وغيرها من المعاني الواردة في زيارة الجامعة الكبيرة، وفيها (بكم فتح الله وبكم يختم وبكم ينزّل الغيث وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه)(٣٢)، فمن أعظم خيراً وبركةً منهم؟

ولسنا فقط من نروي ذلك فقد روى عدد من علماء العامة ذكرهم في المراجعات، أن الحسين بن علي (عليهما السلام) صعد إلى عمر بن الخطاب، فقال له: انزل عن منبر أبي واصعد منبر أبيك، قال: فقال: إن أبي لم يكن له منبر. [قال:] فأقعدني معه فلما نزل ذهب بي إلى منزله فقال [لي]: أيْ بني، مَن علّمك هذا؟ قال: قلت: ما علمنيه أحد، قال: أي بني لو جعلت تأتينا وتغشانا؟ قال: فجئت يوماً وهو خال بمعاوية، وابن عمر بالباب ولم يأذن له، فرجعت فلقيني بعد فقال لي: يا بني لم أرك أتيتنا؟ فقلت: قد جئت وأنت خالٍ بمعاوية فرأيت ابن عمر رجع فرجعت. فقال: أنت أحق بالإذن من عبد الله بن عمر، إنما أنبت في رؤوسنا ما ترى الله ثم أنتم، قال: ووضع يده على رأسه(٣٣)، أي أن كل ما عندنا من خير فهو من الله تعالى وبفضلكم، قال تعالى ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [التوبة: ٧٤].

وأعطي الكوثر أي الخير الكثير بكل معنى سامٍ، يليق بمقامه الكريم، ومنه ما ورد في الروايات أن الكوثر نهر في الجنة(٣٤)، وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد ومسلم وأبو داوود والنسائي وابن جرير والبيهقي في سننه عن أنس بن مالك قال: (أغفي رسول الله (صلى الله عليه وآله) إغفاءة، فرفع رأسه متبسماً، فقال: إنه نزلت عليَّ آنفاً سورة فقرأها حتى ختمها، قال: هل تدرون ما الكوثر؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هو نهر أعطانيه ربّي في الجنة عليه خير كثير ترده أمتي يوم القيامة، آنيته عدد الكواكب، يختلج العبد منهم، فأقول: يا رب، إنه من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدث بعدك)(٣٥).

أقول: يروون هذا وغيره ثم يعتقدون بعدالة كل الصحابة وأن الله تعالى قد رضي عنهم جميعاً، وأخرج في الدر المنثور عن أنس قال: (دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فقال: قد أعطيتُ الكوثر، فقلت: يا رسول الله وما الكوثر؟ قال: نهر في الجنة عرضه وطوله ما بين المشرق والمغرب، لا يشرب منه أحد فيظمأ، ولا يتوضّأ أحد منه فيشعث أبداً، لا يشربه إنسان أخفر ذمتي وقتل أهل بيتي).

ويمكن أن يكون معنى الكوثر: الحكمة، لأن الله تعالى قال: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، والكوثر هو الخير الكثير فالحكمة من مصاديق الكوثر، وقد أوتي رسول الله (صلى الله عليه وآله) الحكمة كأتمّ ما تكون قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

ومن مصاديق الكوثر القرآن فإنه كتاب مبارك دائم العطاء، فيه صلاح الخلق وهدايتهم وخيرهم وفوزهم وفلاحهم إلى يوم القيامة، ومعانيه لا تنتهي ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] وقال أمير المؤمنين (عليه السلام): (لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه)(٣٦)، روى الشيخ الطوسي في أماليه بسنده عن الإمام الباقر (عليه السلام) عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين (عليهم السلام) قال: (قال النبي (صلى الله عليه وآله)): أُعطيت جوامع الكلم، قال الراوي: فسألت أبا جعفر (عليه السلام): ما جوامع الكلم؟ قال: القرآن)(٣٧).

وروى الطبرسي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في معنى الكوثر أنه الشفاعة، وقيل إنه كثرة الأتباع.

وهكذا تتعدد المصاديق وكلها قابلة لانطباق العنوان عليها، روى البخاري والحاكم وغيرهما عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال: ((الكوثر الخير الذي أعطاه الله إياه، قال الراوي: قلت لسعيد بن جبير: فإن ناساً يزعمون أنه نهر الجنة، قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه))(٣٨).

التتمة في الصفحة الثالثة

(٢٤) قبس من نور القرآن ألقاه سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي (دام ظله) في درس التفسير الأسبوعي يوم الأربعاء ١٠/شعبان/١٤٤٥ المصادف ٢١ /٢ /٢٠٢٤.
(٢٥) ثواب الأعمال: ١٢٦. (٢٦) الدر المنثور: ٨ /٦٤٦. (٢٧) تفسير القمي: ٢/ ٤٤٥. (٢٨) البرهان في تفسير القرآن: ١٠/ ٢٥٣، ح ١٩.
(٢٩) من زعماء اليهود في المدينة كان يحرّض قريشاً على حرب النبي (صلى الله عليه وآله) والقضاء عليه ويتعرض لنساء المسلمين فدبر له أحد الصحابة مكيدة وقتله. (٣٠) الدر المنثور: ٨/ ٦٥٢.
(٣١) مجمع البيان: ١٠/ ٢٥٨. (٣٢) مصابيح الجنان: ٤٥٤.
(٣٣) تهذيب التهذيب لابن حجر الهيثمي (بالثاء): ٢ /٣٠٠، لأنصاري: ٢ /٨٨، والرياض النضرة: ١ /٥٦١، والإصابة: ٢ /٦٩، والمراجعات/٣٩٦، وشرح النهج: ٦ /٤٢، وكنز العمال: ١٣ /٦٥٤، ومعرفة الثقات: ١ /٣٠٢، وتاريخ بغداد: ١ /١٥١، وتاريخ دمشق: ١٤ /١٧٥، وتاريخ المدينة: ٣ /٧٩٩، ومناقب محمد بن سليمان: ٢ /٢٥٥، علل الشرائع: /١٨٦، والغدير: ٧ /١٢٦، ومستدرك الوسائل: ١٥ /١٦٥.
(٣٤) راجع الروايات ومصادرها في تفسير البرهان: ١٠ /٢٤٧، والدر المنثور: ٨/ ٦٤٧. (٣٥) الدر المنثور: ٨/٦٤٧.
(٣٦) نهج البلاغة - خطب الإمام علي (عليه السلام) - ج ١ / ص ٥٥، بحار الأنوار: ج ٢ / ص ٢٨٤. (٣٧) الأمالي: ٢/ ٩٩. (٣٨) الدر المنثور: ج ٨/ ص ٦٤٩.

قال الطبرسي: ((وجميع هذه الأقوال تفصيل للجملة التي هي الخير الكثير في الدارين)).

ومن أجلى مصاديق الكوثر السيدة الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) فهي الكوثر في نفسها لأنها المعصومة المطهرة سيدة نساء العالمين وتنعم الأمة ببركة عطائها إلى قيام الساعة، وهي الكوثر لأنها سبب تكاثر رسول الله (صلى الله عليه وآله) مادياً ومعنوياً، لأنها البنت الوحيدة للنبي (صلى الله عليه وآله) ومنها كانت ذريته الطيبة المباركة المعصومة وهم الأئمة الطاهرون وسادة الخلق أجمعين حجج الله تعالى على خلقه وبها وبذريتها (صلوات الله عليهم أجمعين) حفظ الدين وأستمر ذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله) ومنهم تكثّر نسل رسول الله (صلى الله عليه وآله) ليبلغ الملايين بينما انقطع نسل أعدائه ومبغضيه مصداقاً لقوله (صلى الله عليه وآله): (كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي)(٣٩) وقوله (صلى الله عليه وآله): (إن الله عز وجل جعل ذرية كل نبي من صلبه خاصة وجعل ذريتي من صلبي ومن صلب علي بن أبي طالب، إن كل بني بنت ينسبون إلى أبيهم إلا أولاد فاطمة فإني أنا أبوهم)(٤٠).

وهذا المعنى هو أوضح المعاني بشهادة ما نقلناه من سبب النزول، وبمقتضى المقابلة مع وصف مبغضه بالأبتر وهو مقطوع النسل والخير، فإنهم بعد أن عجزوا عن مواجهة النبي (صلى الله عليه وآله) والقضاء على دين الإسلام علّقوا آمالهم على وفاته (صلى الله عليه وآله) لينتهي أمره باعتباره أبتراً لا ولد له، فأعطاه الله الكوثر مادياً بكثرة نسله من ابنته الطاهرة فاطمة الزهراء (عليها السلام) ومعنوياً بتنصيبه علياً (عليه السلام) خليفة له وحاملاً لرسالته ومن بعده الأئمة المعصومون (عليهم السلام) من ذريته وهكذا حفظ الدين.

قال العلامة الطبرسي (رضوان الله عليه): ((وفي هذه السورة دلالات على صدق نبينا (صلى الله عليه وآله) وصحة نبوته أحدها: إنه أخبر عمّا في نفوس أعدائه، وما جرى على ألسنتهم، ولم يكن بلغه ذلك، فكان على ما أخبر.

وثانيها: إنه قال ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ فانظر كيف انتشر دينه، وعلا أمره، وكثرت ذريته، حتى صار نسبه أكثر من كل نسب، ولم يكن شيء من ذلك في تلك الحال.

وثالثها: إن جميع فصحاء العرب والعجم، قد عجزوا عن الإتيان بمثل هذه السورة على وجازة ألفاظها مع تحديه إياهم بذلك، وحرصهم على بطلان أمره، منذ بعث النبي (صلى الله عليه وآله) إلى يومنا هذا. وهذا غاية الإعجاز.

ورابعها: إنه سبحانه وعده بالنصر على أعدائه، وأخبره بسقوط أمرهم، وانقطاع دينهم، أو عقبهم، فكان المخبر على ما أخبر به.

هذا وفي هذه السورة الموجزة من تشاكل المقاطع للفواصل، وسهولة مخارج الحروف، بحسن التأليف، والتقابل لكل من معانيها، بما هو أولى به، ما لا يخفى على من عرف مجاري كلام العرب))(٤١).

أقول: في الآية وعد مؤكد بأن مبغضي النبي (صلى الله عليه وآله) ورسالته العظيمة والمسيئين إليه وإلى دين الإسلام والقرآن، بالكلام أو بالرسوم أو بحرق المصحف أو بافتراء الأحاديث وتشويه السمعة، سيكون مصيرهم انقطاع ذكرهم واندثار أمرهم وبتر وجودهم، وإلا فأنهم أرادوا إطفاء هذا النور من أول يومٍ ومناديهم يقول (لا تبقوا لأهل هذا البيت من باقية)(٤٢) لكن ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]، وهذا ما أثبتته الوقائع سابقاً ولاحقاً، ولو كان عنده شيء من متاع الدنيا الزائلة فإنه لا قيمه له مقابل ما خسره من خير الدنيا والآخرة.

(٣٩) تفسير الميزان: ج ١٥ / ص ٧٥، أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق: ج ٢١/ ص ٦٧ باختلاف يسير. (٤٠) بحار الأنوار: ج ٤٣ / ص ٢٨٤.
(٤١) مجمع البيان: ج ١٠/ ص ٢٥٩-٢٦٠. (٤٢) مقتل الحسين عبد الرزاق المقرّم، ص ٣٤١.

تتمة ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢] سورة الفجر والإمام الحسين (عليه السلام)

لاعتيادها، كما يراد بالليل الظاهرة الكونية المعروفة.

وقد يراد بالفجر والليل الأمور المعنوية مادام معناهما محفوظاً فيها، فيوم المبعث النبوي الشريف وابتداء نزول القرآن هو أعظم فجر بزغ على البشرية حيث انجلت بصبحه ظلمات الجاهلية، ويوم عاشوراء فجرٌ عظيم آخر أعاد الحياة للبعثة النبوية من جديد، وفجر يوم العاشر من ذي الحجة بداية لحياة نورانية سامية، وهكذا. وفي مقابلها فإن الليل كل ظلام يحجب نور الإيمان والسعادة والكرامة والسمو والفضيلة كالجهل والشرك والكفر والعصبية والأنانية والفقر والتخلف ونحو ذلك.

كما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) قوله: (الفجر هو القائم والليالي العشر الأئمة من الحسن إلى الحسن ...، والليل إذا يسر هي دولة حبتر التي تسري إلى دولة القائم)(٤) فالليل كناية عن قضاء الأئمة العشرة بعد أمير المؤمنين (عليه السلام) حياتهم تحت وطأة دول الظَلَمَة التي ملأت الأرض ظلماً وجوراً وفساداً وضلالاً وانحرافاً، والفجر هو انفلاق نور التوحيد والاستقامة والكرامة والحكم العادل والدولة الكريمة.

والليالي العشر مباركة ذات أهمية استحقت القسم بها، وهي قد تكون معينة في علم الله تعالى لكن المولى أبهمها، لتتعدد الاحتمالات في أذهان المتلقّين ويتوسعوا في المصاديق فيزدادوا من الطاعات، وفق مصطلح (الإيهام الإثباتي) الذي ابتكره السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) بحسب ما أعلم، وقد تكون عشرات متعددة، وقد تعددت التفاسير(٥) لليالي العشرة بين العشرة الأولى من ذي الحجة التي تتضمن فجر العاشر، أو العشرة الأولى من محرم إلى يوم عاشوراء، أو العشر الأواخر من شهر رمضان التي تتضمن ليلة القدر، وكلها مقبولة بقرينة تنكير ﴿لَيَالٍ﴾ لإفادة التعميم والتعظيم معاً؛ لذا كان أهل المعرفة يعظمون هذه العشرات والليالي المخصوصة فيها، فكل واحدة من هذه العشرات تنفجر عن صبح جديد يُزيل ظلمات النفس الأمّارة بالسوء ويُطهر القلب من أدرانه ويبعث الحياة في النفوس التي أماتتها الشهوات، وهكذا تتكثر مصاديق الفجر والليل ويتحقق الفجر الأعظم بقيام المهدي الموعود (عجل الله تعالى فرجه) ليتم النور الذي انبلج ببعثة جده المصطفى (صلى الله عليه وآله) كما وعد الله تعالى.

وتدل الروايات على أنَّ لسورة الفجر اختصاصاً بالإمام الحسين (عليه السلام) لأن ما قدمه الإمام الحسين (عليه السلام) يوم عاشوراء كان سبباً لانتشار نور الإيمان في أصقاع الأرض واستمرار رسالة الإسلام وخلودها بعد أن بذل الأمويون ومَن والاهم كل جهد للقضاء على هذا الدين، روى الشيخ الصدوق بسنده عن داوود بن فرقد عن أبي عبد الله (عليه السلام) قال: (أقرأوا سورة الفجر في فرائضكم ونوافلكم فإنها سورة الحسين بن علي (عليهما السلام)، من أدمن قراءة الفجر كان مع الحسين (عليه السلام) يوم القيامة في درجته من الجنة إن الله عزيز حكيم)(٦)، وروى علي بن إبراهيم في تفسير الآية الأخيرة من السورة بسنده عن أبي بصير عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام): ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾ قال (عليه السلام) يعني (الحسين بن علي (عليهما السلام)))(٧) وهكذا تبدأ السورة بذكر الإمام الحسين (عليه السلام) وتنتهي به.

وقد فهم المشهور من الليالي العشر أنها زمنية متتابعة كالعشرات المتقدمة لكن السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) قدّم أطروحتين في مقابلها:

١- إنها عشرة زمانية لكنها غير متتالية بل متفرقة كليلة القدر والنصف من شعبان والعيدين وعرفة والأول من رجب وهكذا، وهو معنى لا يوجد ما يمنع منه.

٢- إنها عشرة مجتمعة في زمان واحد أي متداخلة نظير قوله تعالى: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ (٨) [الزمر: ٦]، قال (قدس سره): ((وعلى تقدير الأهمية المعنوية وعدم التتابع، فهي إشارة إلى أنواع البلاء الذي تمرّ به البشرية أو الجيل أو الفرد، نظير قوله: ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ وتشبيه البلاء بالليل مجاز وارد، أو أن المراد بها حجب الظلمة، إلى غير ذلك، أو المراد عشر مراحل في التكامل))(٩) ثم قال (قدس سره): ((وعليه يمكن أن تكون مجتمعة كلها دفعه واحدة، فمثلاً أنا الآن فعلاً في عشر ليال(١٠)، كما يقال عن الجنين: إنه في ظلماتٍ ثلاث، أي: دفعة واحدة، فكذلك الإنسان قد يكون في ليالٍ عشر أو أقل أو أكثر، وخاصة فيما إذا لم نفهم من العشرة التحديد، بل العدد الإجمالي، كما في السبعين ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾.

والمهم الآن أني سأذكر مثالاً جمعت فيه عشرة أنواع من البلاء لإنسان مسكين يمكن أن يكون نموذجاً موجوداً، وقد تكون أشكال البلاء على الآخرين أيضاً متعددة، لكنها بشكل آخر. فيعيش هذا الإنسان في عشر ليالٍ مجتمعة في ليلٍ واحدٍ أو حالٍ واحدٍ، فنتصور شخصاً في حال المرض والفقر وبيته بعيدٌ، وفي أسرةٍ مشاكسة، ثم تتعدد ابتلاءاته، فهو في ليل الزمان، وليل الوحدة، وليل الفقر، وليل الجوع، وليل المرض، وليل عدم الطبيب، وليل عدم الدواء، وليل بُعد المسافة، وليل الحرّ أو البرد، وليل همّ

التتمة في الصفحة الرابعة

(٤) البرهان: ١٠ /٥٤. (٥) راجع الأقوال في مجمع البيان والدر المنثور وغيرهما. (٦) ثواب الأعمال: ١٢٣: البرهان: ١٠ /١٦١ ح٥. (٧) تفسير القمي: ٢ /٤٢٢، البرهان: ١٠ /١٦٠.
(٨) روى القمي في تفسيره (٢ /٢٤٦) والطبرسي في مجمع البيان عن أبي جعفر (عليه السلام) أنها (ظلمة البطن وظلمة الرحم وظلمة المشيمة) ويمكن أن نورد قوله تعالى ﴿ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠].
(٩) منة المنان، للسيد الشهيد محمد الصدر: ٢/ ٢٢٨.
(١٠) لا أظن أن كلمته هذه مجرد مثال وإنما كان يعني ما قال حيث كان يعاني من ظلمات متعددة منها ظلمة النظام الصدامي الوحشي لكنه (قده) لم يكن يستطيع التصريح فجاء بالمثال.

تتمة ﴿وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١-٢] سورة الفجر والإمام الحسين (عليه السلام)

أسرته اقتصادياً، وليل صعوبة زوجته أخلاقياً وهكذا، فيمكن أن يكون الإنسان هكذا، ويمكن أن توجد نماذج كثيرةٌ من أعلى أنواع البشر إلى أدناها))(١١).

أقول: كان السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) يولي اهتماماً أكبر بإشراق فجر النقاء والإخلاص والفضيلة من داخل النفس والقلب أكثر من طلوع فجر الحرية والتخلّص من الظلمة انطلاقاً من الحديث النبوي الشريف الذي سمى الأول بالجهاد الأكبر والثاني بالجهاد الأصغر، ولا قيمة للثاني مهما عظمت تضحياته إلا بمقدار النجاح في الأول، لذا كان يدعوا إلى فهم الفجر على هذه المعاني لأنه أكثر تأثيراً في تهذيب النفس وسعيها نحو الكمالات، وقد أكّد السيد الشهيد الصدر الثاني (قدس سره) على هذا المعنى في رسائله التي جمعتُها في كتاب (الشهيد الصدر الثاني كما أعرفه) وكتاب (قناديل العارفين) ومما قال: ((وأمّا الفجر الذي تشير إليه في رسالتك والذي أود أن أفهم منه المعنى المعنوي فهو الفجر الذي يشرق في النفس والضمير قبل أن يشرق على المجتمع، والله سبحانه أخبرُ بعباده، ومن المؤكد أن التربية الإيمانية في ظلمات الدنيا وصعوباتها أقوى وأوكد وأرسخ من التربية مع الدلال والترفيه وهل تطبيق الأحكام الاجتماعية العامة بين الناس إلا لطاعة الله، فإذا توفّرت طاعته تحت ظروف الظلمات، بل بشكل ألطف وأوكد فذلك هو المطلوب))(١٢).

كما كان يعبّر (قدس سره) عن حكم صدام الجائر بالليل وعن زواله بطلوع الفجر حيث كنا لا نستطيع استعمال الألفاظ الصريحة والنظام في أوج طغيانه وشراسته في ثمانينات القرن الماضي.

(١١) منة المنان: ٢/ ٢٣٠. (١٢) الشهيد الصدر الثاني كما أعرفه: ص ٣١، جهاد واجتهاد: ٤٢.

تتمة ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٩] الفتح الأعظم يوم الظهور الميمون

وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩] لذا كان خطاب الملائكة لأهل الجنة متضمناً سبب استحقاقهم لها ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

والآية الكريمة تعكس صورة لتصدي القرآن الكريم لدعاوى وشبهات الخصوم والإجابة عنها بما يناسبها وعدم تركها لتشوش فكر ضعاف الإيمان وتزلزل عقائدهم.

كما أنها تنقل نموذجاً لطغيان أعداء الإسلام المتمثلين يومئذ بقريش وحماقتهم إذ لم ينفع معهم التحذير المتقدم ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢١-٢٢]، بل إنهم كانوا يتحدّون النبي (صلى الله عليه وآله) ويطالبونه بأن يفتح الله تعالى له وينزل عليهم النقمة والعذاب التي هدّدهم بها إن كان صادقاً ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [السجدة: ٢٨]، ولا يعلمون أن الله تعالى إنما يؤخره شفقة عليهم ولإعطاء مزيد من الفرص للتوبة والرجوع إلى الله تعالى ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١٩] لأنه إذا جاء يوم الفتح فإنه لا يدفع عنهم العذاب الذي يستحقونه ولا يؤخر ولا تعطى لهم فرصة التوبة والرجوع إلى الحق، فإن سنة الإمهال جارية إلى أمدٍ معين ﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٩]، ولا ينفعهم شيء حتى لو آمنوا بالله تعالى لأن إيمانهم سوف لا يكون عن إسلام بل استسلام فلا يكون صادقاً ولا تكون له قيمة، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٤-٨٥] وقال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

ومن مصاديق هذه الحالة ما حصل لفرعون فإنه لما أيقن بالهلاك غرقاً ادّعى الإيمان برب موسى (عليه السلام) فلم ينفعه إيمانه ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس: ٩٠-٩٢].

فيوم الفتح ليس من الأيام العادية؛ لأن باب التوبة فيها مفتوح مادام الإنسان في الحياة، ورد في الحديث (قال النبي (صلى الله عليه وآله)) إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر، توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا)(١٥)، لذا من المنافي لصريح الآية تفسير الفتح بفتح مكة فإن النبي (صلى الله عليه وآله) قبل إسلام طلقاء قريش، ولا هو يوم القيامة لأنه لا يستقيم مع بقية الآية ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ﴾ فإن الإعراض والانتظار ظاهر في وقوعه في الدنيا.

وعلى هذا فهو يوم مخصوص يكون فيه الحكم الفصل لله تعالى وحده ويصعق فيه كل أعدائه ويحق عذاب الاستئصال عليهم بما كفروا كالأيام التي حكاها الله تعالى عن قوم نوح وعاد وثمود وفرعون وغيرهم ممن شملهم عذاب الاستئصال فيمكن تطبيقه على رؤوس الضلال(١٦) يوم بدر حيث تم استئصالهم على الشرك.

ومن أعظم مصاديقه ظهور الإمام المهدي (عليه السلام) وإقامة دولة العدل الإلهي روى القمي في تفسير الآية السابقة ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ﴾ [السجدة: ٢٧] قال: (الأرض الخراب، وهو مثل ضربه الله عز وجل في الرجعة والقائم (عليه السلام) فلما أخبرهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) بخبر الرجعة قالوا ﴿مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ وهذه معطوفة على قوله: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ فقال الله قل لهم: ﴿يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [السجدة: ٢٩])(١٧).

﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فإنهم جهلة وحمقى ومستكبرون عن سماع الحق وأهل لجاج وعناد ولا يستحقون مزيداً من الجهد لهدايتهم، ودعهم لمصيرهم ﴿وَانْتَظِرْ﴾ أن يأتي أمر الله تعالى فيهم، فإن الله تعالى يفعل ما يشاء هو لا ما يشاءون ويقترحون، ولا تستفزّك عنجهيتهم، وقد يكون الزمن كفيلاً بفضح أهل الباطل والضلال والانحراف ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠] فهم سائرون لما ينتظرهم من العذاب فكن على ثقة بنصر الله تعالى، أو هم منتظرون للقضاء عليك والتخلص من دعوتك ولو بموتك إذ يتوقعون انذثار دعوة النبي (صلى الله عليه وآله) بموته لعدم وجود ولد له يقوم بأمره لأنهم جُبلوا على النظر إلى الأمور بعين شخصية وأن هذه الامتيازات تورَّث، لكن الله تعالى أفشل مخططاتهم وأحبط أمانيهم في يوم الغدير حين نصب النبي (صلى الله عليه وآله) خليفه له وإماماً للحق للخلق أجمعين وأميراً للمؤمنين.

وفي ضوء هذا يُعرَف الوجه في كون يوم ظهور مهدي آل محمد (صلوات الله تعالى عليهم أجمعين) هو أعظم الفتوحات لأن به تحقيق غرض الرسالات الإلهية وظهور دين الله تعالى على كل الأديان وإزالة كل الموانع، روى ابن دراج قال: (سمعت أبا عبد الله (عليه السلام) يقول في قول الله عز وجل: ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾ قال: يوم الفتح يوم تفتح الدنيا على القائم (عليه السلام)، لا ينفع أحداً تقرّب بالإيمان ما لم يكن قبل ذلك مؤمناً وبهذا الفتح موقناً، فذلك الذي ينفعه إيمانه، ويعظم عند الله قدره وشأنه وتزخرف له يوم البعث جنانه وتحجب عنه نيرانه، وهذا أجر الموالين لأمير المؤمنين وذريته الطيبين (عليهم السلام)))(١٨).

وقال بعض علماء العامة في تقريب هذا المعنى: ((ولتحديد هذا اليوم لا بد أن نبحث في العلامات التي تغلق فيها أبواب التوبة وهي التي قال فيها تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وهذه الآيات قال عنها النبي (صلى الله عليه وآله): (ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والمسيح الدجال، ودابة الأرض)، رواه الترمذي))(١٩).

وقال ابن كثير في تفسير الآيات ((ومن زعم أن المراد من هذا الفتح فتح مكة فقد أبعد النجعة، وأخطأ فأفحش، فإن يوم الفتح قد قبل رسول الله صلى الله عليه و(آله) وسلم إسلام الطلقاء، وقد كانوا قريباً من ألفين، ولو كان المراد فتح مكة لما قبل إسلامهم لقوله: ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولا هم ينظرون﴾، وإنما المراد: الفتح الذي هو القضاء والفصل))(٢٠).

وقد مهدت الآيات السابقة لهذا المعنى كقوله تعالى ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة: ٢١] فقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) في عدّة أحاديث قوله: (الأدنى: غلاء السعر والجدب والقحط، والأكبر: خروج المهدي (عليه السلام) بالسيف في آخر الزمان)(٢١).

فانتظار الفرج واليوم الموعود المبارك مما أمر به القرآن ﴿وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ﴾ [السجدة: ٣٠]، بل روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): (أفضل أعمال أمتي انتظار الفرج)(٢٢) وهو الانتظار الإيجابي الذي يقود إلى كل خير يعجل بظهور الإمام ويسرّ قلبه ويرضيه عنا ويؤهلنا لأن نكون من أنصاره ونستثمر كل فرصة في ذلك، قال أمير المؤمنين (عليه السلام): (الفرصة تمر مر السحاب فانتهزوا فرص الخير)(٢٣)، ويبّعد عن كل شر وسوء يحزن قلب الإمام كمن ينتظر امتحاناً مصيرياً في دراسته فإنه يبذل كل جهده ويصبر ويثابر للاستعداد له حتى ينجح فيه بل يتفوق.

(١٥) بحار الأنوار: ج ٦، ص ١٩، عن دعوات الراوندي. (١٦) كأبي جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وعتبة وشيبة أبني ربيعة وامثالهم. (١٧) تفسير القمي: ج ٢، ص ١٧١، ط. دار الكتاب- قم.
(١٨) البرهان: ج ٧ ص ٣١٠، ح٢. (١٩) الباحث أمين سعيد وهو صحفي ومؤرخ من أهل اللاذقية (١٣٠٨-١٣٨٧ هـ) ونقلناه بواسطة كتاب (المهدي الموعود موجود ومولود) للمرحوم السيد مهدي الخرسان: ص ٧٥.
(٢٠) تفسير القرآن العظيم: ٣/ ٤٧٢، تفسير سورة السجدة. (٢١) البرهان: ٧/ ٣٠٨، ح ٧. (٢٢) بحار الأنوار: ج ٥٠، ص ٣١٧. (٢٣) نهج البلاغة: ج ٤، ص ٦، بشرح محمد عبدة.

يمكنكم الاطلاع على آخر اخبار المرجعية وبدايات الاشهر العربية من خلال الموقع الالكتروني الرسمي (yaqoobi.com) و
وتطبيق (ضوء الامل) للهواتف النقالة كما يمكنكم مراسلة مكتب المرجعية على البريد الالكتروني الرسمي (...com)
العنوان : النجف الاشرف - نهاية شارع الرسول - مؤسسة الامام الباقر (ع) خلف مكتبة الامام ال

جميع الحقوق محفوظة
لموقع سماحة المرجع الديني الشيخ محمد اليعقوبي